

المحاضرة الثانية
نظريات نشوء اللغة
م. م. مها خليل جاسم
الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

1- نظرية التوقيف:

يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة هبة من الله تعالى، ولا شأن للإنسان بوضعها، وأول من قال بهذه النظرية كان الفيلسوف اليوناني هيرقليطس الذي رأى أن (الأسماء تدل على مُسمياتها بالطبيعة لا بالتواطؤ والاصطلاح، وأن هذه الأسماء قد أُعطيت من لدن قوّة إلهية لتكون أسماء لمسمياتها).

واستمرت هذه النظرية في العصور الوسطى، ولاقت قبولاً عند رجال الدين المسيحي، ولم تعد براهين هذه النظرية تعتمد الأدلة العقلية والفلسفية فحسب؛ بل أضحت تستمد شرعيتها من الكتب السماوية (الإنجيل والتوراة)، من ذلك الجملة التي وردت في صدر إنجيل يوحنا: (في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله).

واستمرت هذه النظرية بعد ظهور الإسلام، بل ازدادت قوّة بفضل آية قرآنية رأى معظم المفسرين أنها دليل على توقيفية اللغة، وهي قوله تعالى: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا))، وتابع عدد من علماء العربية المفسرين فيما ذهبوا إليه من القول بتوقيفية اللغة، منطلقين في ذلك من الآية القرآنية ذاتها، وأهمهم: ابن دريد في كتابه الاشتقاق، وابن فارس في كتابيه: الصحابي في فقه اللغة، ومعجم مقاييس اللغة. وأبو علي الفارسي والرخش وغيرهم.

أمّا في العصر الحديث فقد انحسرت هذه النظرية نوعاً ما، إلا أنها لم تندثر نهائياً، ففي القرن الثامن عشر نادى بها المفكر الفرنسي دي بونالد، الذي رأى أن (اللغة ليست توطئية من خلق الإرادة البشرية فإلناس لم يتفقوا فيما بينهم على أن يكون ثمة لغة فكان هناك لغة، فالإنسان لا يقدر على خلق شيء ما لم يكن لديه فكرة صريحة عنه، ولكي يحصل على هذه الفكرة الصريحة ينبغي له من لدن الله). أن يعبر عنها، إذن اللغة واجب وجود لمنشأ اللغة ذاتها، مما يفيد أن اللغة ليست من عمل القوى البشرية، إنها

والحق أن ما ذهب إليه دي بونالد بقوله: (إن اللغة واجب وجود لمنشأ اللغة ذاتها) ليس فتحاً جديداً، فقد سبقه إليه السيوطي بقوله في كتابه المزهر: "لو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج في التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة يعود إليه الكلام".

وبعد هذا العرض السريع لتاريخ هذه النظرية؛ يجدر بنا الوقوف عند قوله تعالى: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)).

ذكرنا أن معظم المفسرين ذهب إلى أن اللغة توقيفيّة، ودليل توقيفيتها هو هذه الآية، وأخذ كلُّ منهم يفسرها بالشكل الذي يجعل من توقيفيّة اللغة أمراً لا محيد عنه، وتعدّدت الآراء وتشعبت في ماهيّة هذه (الأسماء).

فابن جني يرى أن الله سبحانه علّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسيّة والسريانيّة والعبرانيّة والروميّة وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثمّ إن أولاده تفرقوا في الدنيا وعلق كلُّ منهم بلغة من تلك اللغات، فغلّبت عليه وضمحلّ عنها ما سواها لبعدهم عهدهم بها.

وذهب بعض المفسرين إلى أنّه علمه أسماء ذريته، وبعضهم الآخر إلى أنّه علمه أسماء النجوم، وبعضهم إلى أنه علمه أسماء الملائكة، وبعضهم إلى أنه علمه أسماء الحسنى.

بل إن بعضهم نسب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديثاً بادي الوضع، ونصه: (عن أبي ذر -رضي الله عنه- أنه قال: يا رسول الله أي كتاب أنزل على آدم عليه السلام؟ قال: كتاب المعجم، قلت أي كتاب المعجم؟ قال: أ - ب - ت - ث - ج، قلت يا رسول الله كم حرفاً؟ قال تسعة وعشرون حرفاً).

والحق أن الاختلاق ظاهر في هذا الحديث، ولأسباب عدة منها:

- 1- عدم عثورنا على هذا الحديث في معظم كتب السنّة .
- 2- لم تكن الحروف في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- معروفة بهذا الترتيب وبهذا العدد، فأول من رتب الحروف بهذا الشكل كان نصر بن عاصم الليثي (ت: 90هـ).

أمّا قوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلّها) والذي ذهب فيه المفسرون مذاهب شتى، فإننا نرى فيه أن الله لم يعطِ آدم الأسماء بل أعطاه القدرة على وضعها، أي ما يمكن لنا أن نسميه بالفضول البشري المعرفي، ويؤيد هذا المذهب أشياء عدّة منها:

- 1- ورد في موضع آخر من القرآن الكريم قوله تعالى: ((إن هي إلا أسماء سميتوها))، حيث نُسب وضع الأسماء إلى البشر لا إلى الله.
- 2- جاء في سفر التكوين الإصحاح الثاني ما يدعم هذا الرأي؛ أي القول بأن آدم هو من وضع الأسماء، ولكن الله وضع فيه القدرة على وضعها، ونصه: (وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حيّة فهو اسمها).

3- يمنعنا من القول بتوقيفيّة اللغة أشياء عدّة منها:

أ- لا يصحّ إذا كانت اللغة من عند الله تعالى وجود التضاد في اللغة، نحو (الجون الذي يدلّ على الأبيض والأسود)؛ لأن هذا التضاد تناقض يتنافى والحكمة الإلهيّة، كما أنها لو كانت من عند الله (لما كان للشيء الواحد أسماء متعددة وللإسم الواحد معان كثيرة).

ب- لو كانت اللغة من عند الله لما كانت بحسب ما يقول دوسوسير - (عاجزة جذرياً عن الدفاع عن نفسها ضد العوامل التي تنتقل من لحظة إلى أخرى العلاقة بين الدال والمدلول، وهذه إحدى نتائج اعتباريّة العلامة).

ج- لو أن آدم عليه السلام أُعطي كل الأسماء والكلمات بحسب ما يرى بعض اللغويين- لأعطي كلمات لم يُعرف معناها في ذلك العصر، كالحاسوب والطائرة وغيرها، ولكن لم تصلنا في الأخبار المنقولة كلمات كهذه.

د- أياً حكمة في تعلم آدم عليه السلام اللغات التي ذكرها ابن جنّي، إن وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل، ولغة واحدة كفيلة بتحقيق هذا التواصل.

والخلاصة: إننا لا نرفض هذه النظرية جملة وتفصيلاً، بل نرى أن التوقيفية- إذا كانت موجودة- فهي مقصورة على القدرة الكامنة التي وضعها الله في الإنسان، والتي سمحت له بوضع الأسماء.

2- نظرية المحاكاة:

ملخص هذه النظرية أن اللغة نشأت عن محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة المحيطة به، وأقدم الأقوال التي وصلتنا حول هذه النظرية كانت للفراهيدي وتلميذه سيبويه، فقد نقل لنا ابن جنّي في الخصائص ما نصّه: "قال الخليل كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدّاً، فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً، فقالوا: صرصر، وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على فعّلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة نحو: النقران والغليان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال"، وقيل ابن جنّي بهذا الرأي ورجحه بقوله: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الطي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب مُتقبّل".

وتابعت هذه النظرية ظهورها في العصور الحديثة، فتنبّى العالم (وتني) ما ذهب إليه ابن جنّي بحرفيته تقريباً، إذ رأى "أن اللغة نشأت عن طريق محاكاة الإنسان للأصوات الطبيعية التي كان يسمعها حوله"، وبالغ بعضهم في قيمة هذه النظرية كعبد الله العلايلي الذي يزعم أن كلّ حرف من حروف الأبجدية العربية يدلّ على معنى خاصّ، وأنّه إذا عرفت معاني الحروف أمكن معرفة معنى الكلمة العربية ولو لم تكن معروفة من قبل، ثمّ يمضي فيجعل لهذه الحروف معاني فلسفية لا نظنّ أنها خطرت يوماً على قلب الإنسان العربي القديم.

والحقّ أن هذه النظرية فيها من المبالغة ما يجاوز حدّ المعقول، فلو كانت اللغة بكاملها محاكاة للطبيعة لما تعدّدت لغات العالم، ولكان للعالم لغةً واحدة لا غير.

إلا أن هذه النظرية تحمل شيئاً من الصواب، فبعض الألفاظ تُعتبر صدئاً لأصوات الطبيعة كالحفيف والخرير والزفير والصهيل والعواء، وبعض الألفاظ قد ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدلالات في بعض الحالات النفسية، نحو الكلمات التي تعبّر عن الغضب أو النفور أو الكره، وقد غدا معروفاً في العربية أن زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، وهذا ما أشار إليه سيبويه والخليل أنفاً.

والخلاصة: أننا لا نستطيع أن نردّ كلّ ألفاظ اللغة إلى محاكاة الطبيعة، فضلاً عن أننا لا نستطيع أن نهمل هذه النظرية إهمالاً تاماً، فهناك قسط لا بأس به من ألفاظ العربية يمتّ بصلة وثيقة إلى أصوات الطبيعة.

3- نظرية الاصطلاح:

يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة اصطلاح وتواضع يتم بين أفراد المجتمع، ومن ثمّ ليس لألفاظ اللغة أية علاقة بمسمياتها.

وأول من قال بهذه النظرية كان الفيلسوف اليوناني ديمقريطس الذي اعتبر منشأ اللغة عملية تواطئية؛ لأن الاسم الواحد ذاته كثيراً ما يقبل عدّة مسميات، ولأنّ الشيء الواحد كثيراً ما يقبل عدّة أسماء أو قد يتبدّل اسمه ولا يتبدّل هو، وتوسعاً بهذا المبدأ انتهى ديمقريطس إلى القول بأنّ الأسماء تُعطى للأشياء من لدن الإنسان لا من لدن قوّة الهية.

وعلى الرغم من سيطرة النظرة الدينية التوقيفية في المجتمع الإسلامي؛ فإن ذلك لم يمنع بعض اللغويين العرب من القول بالاصطلاح، وهذا ما يبدو جلياً من قول ابن جنّي في الخصائص: "أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف".

وتابعت هذه النظرية في العصور الحديثة استمراريتها، حيث لاقت قبولاً عند الأب الروحي للدراسات اللغوية الحديثة فردينان دوسوسير، فهو يقرّر منذ البداية أن (الرابط الجامع بين الدال والمدلول هو اعتباطي)، ويبرّر ذلك بقوله: "وحيثما في ذلك إنما هي الاختلافات القائمة بين اللغات ووجود اللغات المختلفة"، ولكن دوسوسير ما لبث أن أقرّ بوجود شيء من العلاقة بين الدال والمدلول، إذ يرى أن هناك بعضاً من ملامح الرابط الطبيعي بين الدال والمدلول، ثمّ يرى أن الفرد ليس لديه القدرة على تغيير أي شيء في علامة ما، وذلك عند ثبوتها وتمكنها في مجموعة لغوية.

وعلى الرغم من منطقيّة ما تطرحه هذه النظرية فإنها تعرّضت لاعتراضات عدّة، منها الاعتراض القائل بحاجتنا إلى لغة تكون وسيلة التخاطب حتّى نتمكّن من وضع لغة، وهذه الفكرة هي التي أشار إليها كلٌّ من السيوطي ودي بونالد في العبارات التي اقتبسناها عنهما عند الحديث عن النظرية التوقيفية، كما أشار إلى الفكرة ذاتها العالم الألماني ماكس مولر الذي رأى أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفق خلافاً لما ذهب إليه أصحاب النظرية التواطئية، إذ لو كان الأمر كذلك – وهو ما تأباه طبيعة النظم الاجتماعية – لوجب أن يكون في أيدي المتواضعين وسيلة للتفاهم فيما بينهم، ولا يمكن أن تكون هذه الوسيلة؛ اللغة الصوتية؛ لأن المفروض أن اللغة الصوتية هي موضوع التواضع.

والخلاصة: إنّ قسماً كبيراً من مفردات اللغة قد وُضِع عن طريق الاصطلاح، فما تقوم به مجامع اللغة العربية لا يعدو أن يكون اصطلاحاً وتواضعاً، ولكن ذلك لا يعني أن اللغة كلها قد وُضِعَت على هذا الأساس.

* النظريات الحديثة:

لم يتوقف البحث في أصل اللغة ونشأتها ، فظهرت في القرن التاسع عشر الميلاد نظريات جديدة منها :

1- نظرية التنفيس عن النفس (الأصوات الساذجة):

تتلخص هذه النظرية في أن مرحلة الألفاظ قد سبقتها مرحلة الأصوات الساذجة التلقائية التي صدرت عن الإنسان للتعبير عن ألمه أو سروره أو رضاه أو نفوره، وقد تطورت هذه الأصوات على مر الزمن حتى صارت ألفاظا. أهم ما يميز هذه اللغة أنها تعزو نشأة اللغة الإنسانية إلى أمر ذاتي، أي أنها تعتد بالشعور الإنساني الوجداني، وبالحاجة إلى التعبير عما يجيش في صدر الإنسان من أحاسيس وانفعالات.

المآخذ على هذه النظرية:

يؤخذ على هذه النظرية أمران: الأول، النقص. والثاني، الغموض. أما نقصها، فلأنها لا تبين منشأ الكلمات الكثيرة التي لا يمكن ردها إلى أصوات انفعالية.

وأما غموضها، فلأنها لا تشرح لنا السر في أن تلك الأصوات الساذجة الانفعالية تحولت إلى ألفاظ أو أصوات مقطعية.

ولذلك سخر منها مكس مولر وانصرف عنها العلماء.

5- نظرية الاستعداد الفطري (الغريزة الكلامية): يرى أصحاب هذه النظرية أن أصل اللغة يرجع إلى غريزة خاصة تحمل الإنسان على التعبير عن الانفعالات أو الأشياء بكلمة خاصة بعفوية. من أصحاب هذه النظرية العالم الفرنسي فندريس والألماني مكس مولر والفرنسي رينان.

جاء بهذه النظرية اللغوي الألماني مكس مولر وسماها DING DONG.

خلاصتها أن الإنسان مزود فطريا بالقدرة على صوغ الألفاظ الكاملة، وأنه مطبوع على الرغبة في التعبير عن أغراضه بأية وسيلة من الوسائل، غير أن القدرة على النطق لا تظهر إلا عند الحاجة.

وقد استوحى مولر نظريته من ملاحظته الأطفال في حياتهم اليومية، التي تدل على توقعهم إلى وضع أسماء للأشياء التي يرونها ولا يعرفون لها أسماء، فيبتكرون لها أسماء إرضاء لرغبتهم في التكلم والتعبير عن أغراضهم. فاستنبط من ملاحظته أن الإنسان مزود بتلك القوة التي تنشأ عنها الألفاظ.

المآخذ على هذه النظرية:

أبرز عيوبها أنها تفترض ظهور الكلمة أو الكلمات الأولى لدى الإنسان كاملة غير خاضعة لسنة التطور.

كيف ومتى زود الإنسان بهذه الذخيرة اللغوية؟

كيف انطوت نفسه على تلك الألفاظ كاملة؟

إذا كان زود بفطرته بهذه الألفاظ فلم اختلفت اللغات وتعددت اللهجات؟

كيف أخرج الإنسان تلك الكلمات من مكانها وأطلقها على الأشياء المختلفة؟

6- نظرية التطور: يرى بعض العلماء أن اللغة بدأت بالشهقات أو التآوهات التي تصدر عن الإنسان في حالة الحزن أو الفرح أو الدهشة، مستندين على نظرية دارون التي تقول بتطور الكائنات الحية. بينما يرى المعترضون أن هذه الأصوات تتم بصورة فجائية بعيدة عن الكلام.

ترى هذه النظرية أن اللغة تطورت على وفق مراحل متعددة:

أ- مرحلة الأصوات الساذجة التي صدرت عن الإنسان في العصور الأولى، حين كانت أعضاء النطق لديه غير ناضجة.

ب- مرحلة الأصوات المكيفة المنبئة عن الأغراض والرغبات المصحوبة بالإشارات المتنوعة وقد ساعد هذا في تطور أعضاء النطق ونمو الإحساس والشعور الذاتي عند الإنسان.

ج- مرحلة المقاطع: وفيها انتقلت لغة الإنسان من أصوات غير محددة المعالم إلى أصوات محددة في صورة مقاطع قصيرة مستتبطة من أصوات الأشياء.

د- مرحلة الكلمات المكونة من المقاطع: في هذه المرحلة تتكون المقاطع التي سبق الحديث عنها الكلمات أو الأصول العامة التي استعملها الإنسان الأول... ثم اشتق منها الكثير من الفروع وبالتأليف بين هذه الفروع وتلك الأصول اكتمل تكوين اللغة الفطرية.

هـ- مرحلة الوضع والاصطلاح وهي آخر مرحلة من مراحل النمو اللغوي وهي وإن لم تكن مرحلة فطرية فإنها تقوم على أساس فطري، وهو حاجة الإنسان الملحة إلى الاحتكاك ببيئته.

في هذه المرحلة وضعت الاصطلاحات العلمية وابتكرت الأسماء الدالة على المسميات المستحدثة، ولا تزال اللغة في تطور مستمر.

خلاصة:

اختلف العلماء عبر العصور في تحديد نشأة اللغة وأصل الكلام، مما أدى إلى ظهور عدة نظريات، وما من نظرية إلا ولها معترضون يحاجون الطرف الآخر بالحجة والبرهان، ولعلّ هذا الاختلاف ناتج عن تأخر أول نظرية تتحدث عن في نشأة اللغة عند الإنسان الأوّل، وما هذه النظريات إلا اجتهادات تفتقر إلى الأدلة الموضوعية، ولذلك نقول للذين يقولون بتواضع اللغة واصطلاحها في تسمية الأشياء دون أيّ علاقة بين منطقيّة بين الشيء واسمه، لا بد من وجود لغة عندهم يستعملونها، فبأيّ لغة كانوا يتواضعون؟!

أما اللذين يقولون بالتوقيف والإلهام فنقول لهم: كيف يتعلّم الإنسان ألفاظاً ولا يتعرّف مدلولاتها؟!

وحتى نظرية الأصوات المسموعة لم تنطبق على كلّ الألفاظ والمفردات.

لذلك لا بدّ من تداخل كل النظريات التي تبحث في اللغة ونشأتها لنخرج بنظرية واحدة؛ لأن اللغة نتاج تفاعل الإنسان صاحب الفطنة والذكاء، صاحب الغرائز والحاجات، فلم ينفصل الإنسان عن الطبيعة، فقد عرفها وتعامل معها في مأكله ومشربه وملبسه، عاش فصول السنة وراقب الظواهر والتقلبات الجوية والطبيعية، سمع الأصوات فحاكاها وهذه هي البداية، ولأنّه كان يعيش ضمن الجماعة فلا بدّ أن

يكون هناك علاقات اجتماعية لا يمكن أن تتفاعل إلا بالتواصل عن طريق الصوت أو الصراخ أو الإشارة للتعبير عن الحالات النفسية كالفرح والحزن والدهشة، كما ذكر الدكتور إبراهيم أنيس . هذه العلاقة أسهمت في نمو لغته عبر العصور وتناقلتها الأجيال بينها وأضافت ما يمكن إضافته من مدلولات صوتية، ومع اشتداد الحاجة بدأ الإنسان صاحب الذكاء يفكر باستعمال اللغة والعمل على توسعها